

العلم بأعمال العباد



«قال تعالى: (اللَّهُ يُعَلِّمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيصُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ * عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ * سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ * لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُؤُنَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنْ نَـالَ اللَّهُ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرَ رُؤَا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ) (الرعد/ 8-11). - معاني الكلمات: الغيظ: ذهاب المائع في جهة العمق، ومنه غيظ الماء، أي ذهب في الأرض، ويستعمل الغيظ في النقصان، وهذا المعنى هو المراد في الآية بقرينة (وَمَا تَزْدَادُ)، المتعال: المستعلي على كل شيء. السارب: الجاري الواضح. المعقبات: جمع معقبة وهو ما يتعقب الإنسان كحواسه وغرائزه التي تحرسه، وقيل إنَّها الملائكة. يقف الإنسان مشدوهاً أمام هذا الوصف المحير، فإنَّ سبحانه يعلم ما في بطون الحوامل من مخلوقات في هذا الكون في البر والبحر، في البدو والحضر، يعلم ما تكنه هذه البطون، وكل قطرة دم تزيد أو تنقص، ثمَّ يتبع كل هامس، وكل جاهر، وكل مستخف، وكل سارب، يصور علمه المطلق وهو يتعقب كل فرد من بين يديه ومن خلفه، ويسجل عليه كل شاردة وكل واردة، آناء الليل وأطراف النهار، وهذه اللمسات في أغوار النفس ومجاهيل السرائر لعلها

أضخم من اللمسات في الكون الهائل. (وَكَلَّ شَيْءٌ عِنْدَهُ بِمَقْدَارٍ) (الرعد/8) فلما ان صوّر العلم بالغيب والزيادة في ما يكون في الأرحام، عقّب على ذلك بأنّ العلم الخافي والدقيق هو بمقدار، فلا يخلق إلا شيئاً عبثاً ومن غير أصول، بل لكل شيء حد ونظام من حيث الكم والكيف، ومن حيث الخواص والآثار، في الكيف من حيث الشكل، والصورة، والمكان، والزمان، والأسباب، والسنن. كل ذلك على ما تستدعيه الحكمة والمصلحة. (عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ) ليس المراد بالكبر الضخامة، وبالعلو المكان المحسوس، بل كناية عن عظمة الإله في ذاته وصفاته، وعلم الغيب ما غاب عنا علمه، وعالم الشهادة ما نراه ونشاهده. إنّ الكون مليء بالمخلوقات من شتى الأجناس والأصناف العلوية والسفلية، فمن الجرائيم، إلى الإنسان، إلى الملائكة، إلى الجن، إلى المعدن، إلى النبات والحيوان، إلى الماء والهواء وما فيهما، إلى ما لا نهاية، وقد يعلم الإنسان طرفاً من أشياء الكون، ولكن علمه مهما بلغ لا يعدو شيئاً إلى جانب ما غاب عنه، فأكثر الحقائق وضوحاً تبطن الكثير من الأسرار، ولا يعلم ما في الكون إلا خالق الكون، فهو وحده الذي يتساوى لديه السر والعلن، والغائب والشاهد. ولفظنا (الكبير المتعال) كلتاهام تليقان ظلهما في الحس البشري، ولكن يصعب تصوير ذلك الظل بألفاظ أخرى، إنّه ما من خلق حادث إلا وفيه نقص يصغره، وما يقال عن خلق من خلق الإله، أو عن أمر من الأمور، أو عمل من الأعمال إنّه كبير، حتى يتضاءل بمجرد أن يُذكر الإله، وكذلك المتعال (وَمَا أُوْتِيتُمْ مِنْ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً) (الإسراء/ 85). المعقبات: قال العلامة مغنية في تفسيره للمعقبات التي تتعقب الإنسان أينما كان هي: حواسه وغرائزه التي لها تأثير في صيانتها أينما كان، وقال المفسرون: المراد بالمعقبات الملائكة، وجاء في كلام أمير المؤمنين علي (ع): "ومنهم - أي الملائكة - الحفظة لعباده". وجاء في كلام للإمام الباقر (ع) في تفسير هذه الآية: (يحفظ بأمر الإله من أن يقع في ركي، أو يقع عليه حائط، أو يصيبه شيء، حتى إذا جاء القدر خلوا بينه وبينه، ويدفعونه إلى المقادير، وهما ملكان يحفظانه بالليل، وملكان يحفظانه بالنهار يتعقبانه). (إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرَ رُؤُوسَهُمْ) (الرعد/ 11). قال المفسرون: إنّ هذه الآية تدل على أنّ القوم الذين يعيشون بنعمة المال والأمن والجاه لا يغيّر الله عنهم ما بهم ما داموا يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة، فإن عصوا زالت عنهم هذه النعمة. وقال العلامة مغنية: إنّ الإله جلت عظمته يبغي الإنسان في البؤس والهوان ما دام في جموده وركوده لا يقاوم باطلاً، ولا يحرك ساكناً للتخلص مما هو فيه، إنّ الإله لا يغيّر ما بنا من حاجة حتى نعتقد أنّ الفقر من الأرض لا من السماء، وحتى نكافح ونجاهد من أجل تحرير أنفسنا. (وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدٍّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ) (الرعد/ 11). أي إذا أراد

ا ٲ يقوم سوء من مرض أو فقر ونحوهما من أنواع البلاء بما كسبت أيديهم حين أخذوا بالأسباب التي تصل بهم إلى هذه الغاية فلا يستطيع أحد أن يدفع ذلك عنهم، ولا يرد ما قدره ا ٲ لهم، وليس من دون ا ٲ من ولي يهتم لأموالهم، فيجلب لهم النفع، ويدفع عنهم الضرر. المصدر: مجلة الرياحين/ العدد 27 لسنة 1429هـ